الطموح فى حياتنا من الأمور الهامة، فهو الدافع لنا إلى التطور والتقدم وتغيير حياتنا إلى الأفضل، وكل إنسان يملك بداخله وعيا مستترا لحجم قدراته، وبالتالى يبدأ بشكل تلقائى غير واعٍ فى إطلاق العنان لطموحه إلى المدى الذى تسمح به معرفته بتلك القدرات، كما أنه يحدد أيضا الاتجاه الذى سيسلكه، فهذا يتجه إلى النشاط الرياضى، وآخر إلى التفوق الأدبى، وغيره يبحث عن التفوق الدراسى، بينما آخر يرى أنه متميز فى النشاط التجارى والأعمال الحرة، وغالبا ما يكون هذا المفهوم صادقا ودقيقا بداخل كل فرد عن تلك القدرات، وبالتالى يأتى الطموح متناسبا معها، وموجها فى طريقها.

الإحباط والتغيير

فى بعض الأحيان تختل قدرة بعض الناس فى تحديد قدراتهم، فيراها البعض على أنها أكبر أو أقل من حقيقتها، فمن يرى قدراته أقل من حقيقتها، لن يشعر بمشكلة تُذكر، بل سيكون عنده ثقة عالية بذاته، وبقدرته على تحقيق ما يريد، أما إذا كان يراها أضخم من حقيقتها، عندها يتعدى طموحه قدراته، وتبدأ سلسلة من المشاكل التى سنتحدث عنها لاحقا، هناك نوع آخر من الناس يكون مدركا لحجم قدراته، ولكن رغباته الجامحة فى أمور ما تخدعه، أو بعض الضغوط الخارجية تفرض عليه وتدفعه للخوض فى محاولات يائسة، فيسعى لأمور هى فى الواقع أبعد من أن يحصل عليها، هناك نوع آخر يملك قدرات عالية فى بعض المجالات، ولكن طموحه يأتى فى اتجاهات أخرى، كالمتفوق علميا ولكنه لا يستطيع تحقيق طموحه المادى، أو أن يتوفر له الطموح والقدرات التى تؤهله لتحقيق ما يريد، ولكن سوء الحظ وعدم التوفيق أو الظروف المحيطة غير المواتية، تفسد عليه بصورة متكررة ما يسعى إليه، وتؤدى إلى الفشل، فإذا حدث تكرار للفشل لأى سبب من الأسباب المذكورة سابقا، تبدأ مشاعر الإحباط تتسلل إلى قلبه، تزحف ببطء بداخله، وتتزايد مع تزايد عدد الأبواب الموصدة التى تواجهه، ويتعمق الإحباط بداخله، يذيب حماسه ويمزق إرادته، ويتحول إلى يأس وفقدان عميق للثقة بالنفس، عندها يبدأ التغيير.

والذى دفعنا لعرض هذا النموذج من العلاقات الزوجية، هو التغيير الذى طرأ على كثير من المجتمعات العربية التى سارت على النهج الدولى العام فى التحول من النظم الاشتراكية إلى النظم الرأسمالية، وما تبعه من تغيرات على المستوى الاجتماعى والاقتصادى، ففى السابق كانت التعيينات تتم بشكل تلقائى، بصرف النظر عن الكفاءة، فالجميع يعمل، والفرد جزء من الكل، ومجالات المنافسة محدودة، ويتساوى إلى حد ما المتميز مع محدود الإمكانيات، ولكن مع هذا التغير إلى المبادئ الانفتاحية واقتصادات السوق، التى تسمح للأفراد بالاستفادة من كامل طاقتهم، واستغلال كل الإمكانات المتوفرة لديهم، ازدادت حدة المنافسة ولم يعد هناك مكان إلا للمتميزين، الذين يملكون المقومات الشخصية والمهارات الكفيلة بتحقيق النجاح، وبالتالى لن تتوفر أماكن كافية أو أماكن متميزة لمحدودى القدرات، حيث يصعب عليهم الدخول فى منافسة غير عادلة مع من هم أكثر منهم حنكة ومهارة، فتضيق فرص العمل أمامهم، وتتسع الهوة المادية والفوارق الطبقية بينهم وبين أقرانهم، وتبدأ المقارنات ممن حولهم بزملائهم الناجحين، مما يعمق شعورهم بالإحباط واليأس ، ويفقدون ثقتهم بأنفسهم، ويسيطر عليهم الإحساس بالفشل، وتبدأ تلك المشاعر فى التزايد وتدور فى دائرة مغلقة.

●●●

مثال على ذلك، ذاك الشاب المتخرج حديثا، يقطن أحد المناطق الشعبية، أحب زميلة له كانت تدرس معه، اتفقا على الزواج، وتم الزواج بينهما بمجرد انتهائهما من الدراسة الجامعية، و بدآ يرسمان طريقهما سويا بطموحات واسعة وآمال عريضة فى المستقبل، وجاء تعيين الزوجة فى إحدى الوظائف الحكومية، بينما رفض الزوج العمل الحكومى وقرر البحث عن عمل فى إحدى الشركات الخاصة، وتقدم لعدد كبير من تلك الشركات، بعضها لم يلق بالا لطلبه، بعضهم الآخر أجاب بالرفض، بعض آخر طلب أن يقوم بعمل مقابلة شخصية له، وكانت النتيجة تأتى بالرفض أيضا، نصحه بعض زملائه أن تلك الشركات الكبيرة لن تهتم لطلبه إلا إذا كانت هناك واسطة كبيرة تسانده، وبالفعل لجأ إلى أحد النافذين الذى يمت له بصلة قرابة، وتوسط له هذا القريب، وتم قبوله فى إحدى الشركات، وسط فرحة

منه وسعادة من زوجته أنه أخيرا وجد العمل المناسب، وبدأ فى عمله الجديد وكله جدية وحماس، فقد كان سعيدا به، وكان يتقاضى راتبا جيدا، ولكن الأمور سارت على غير ما كان يبغى، فرئيسه فى العمل لا يبدو راضيا عن أدائه، كما أنه لم يكن مستسيغا أسلوبه الجاف غير المرن الذى يتعامل به معه ومع الآخرين، لذلك لم يكن رئيسه على قناعة به بشكل عام، ولاحظ هو ذلك، وصار هذا الأمر يضايقه ويؤرقه كثيرا ، فأخذ يحاول أن يرضيه بشتى الوسائل، ولكنه لم يفلح، وبات رئيسه يتصيد له الأخطاء، ويتشدد معه على كل صغيرة وكبيرة، مما أثر كثيرا فى نفسيته إلى أن وصل الأمر إلى الذروة وأنهى تعاقده مع الشركة، وعاد الزوج مرة أخرى بدون عمل .

وبدأ يصب جام ثورته على هذا الرئيس المتعنت ذى المزاج المتقلب وألقى باللوم الكامل عليه، وبدأ يبحث عن عمل جديد، واعتمد مرة ثانية على راتب الزوجة، واستطاع أن يجد عملا فى شركة أكثر تواضعا من السابقة، وراتبا أقل، ولكنه تقبل الأمر فى صمت، لأنه ظل فترة طويلة يبحث عن عمل مناسب ولم يجد، فقبل تلك الوظيفة كحل وسط على أن يظل يبحث عن عمل آخر، وهكذا استمر فى عمله على مضض، وكان لانخفاض الراتب الملحوظ عن الوظيفة السابقة أثر سلبى على مستوى معيشتهم، وصار بالكاد يكفى احتياجاتهم الأساسية، وبدأت الزوجة تعبر عن سخطها من الضيق المادى، وتعدد له ما يملكه أخواتها وتفتقده هى، وتقارن بين الوضع المادى لصديقاتها ووضعها هى، وتحمل عليه باللوم، وتحمله مسئولية تغيير ذلك الوضع، فبات المسكين يكثف من جهوده فى البحث عن عمل آخر، وأصبح ناقما على عمله الحالى، وبدأ يهمله لأنه فى الأصل ليس على قناعة به، مما أدى بهم إلى فصله بسبب الإهمال وتعدد الأخطاء، وعاد مرة أخرى بدون عمل لتزيد المشكلة تعقيدا.

وبينما كان يسير فى إحدى الطرقات يبحث عن عمل جديد، التقى بأحد زملاء الجامعة، كان يقود سيارة فارهة وتبدو عليه علامات الثراء، وقف معه لبرهة يتجاذبان أطراف الحديث، وعلم منه أنه يعمل فى تجارة السيارات، وتدر عليه ربحا جيدا، وعاد إلى المنزل ساهما ... فهذا الزميل لم يكن من المتميزين فى الدراسة، بل إنه كان كثير الرسوب، ولم يكن يأخذ الأمور بجدية مثلما كان يفعل هو، وبدأ يصل إلى مسامعه أخبار زملائه، فإذا بأحدهم أصبح مليونيرا فى فترة وجيزة من العمل فى استيراد بعض المواد، وآخر حقق ثروة طائلة من شراء وبيع العقارات، وآخر عمل فى تصدير المواد الغذائية، وآخر افتتح متجرا يعود عليه بالمال الوفير، عندها بدأت الفكرة تختمر فى ذهنه، أن يترك البحث عن الوظيفة ويتحول إلى العمل الحر .

فى تلك الأثناء زادت الفاقة بهما، وبدأت الزوجة تلح عليه أن يلتحق بوظيفة حكومية، على الأقل فيها الثبات وليس من السهل فصله منها، لكنه أبى بشدة معللا أن هذا تفكير قاصر، وأن تلك الوظيفة لا يمكن أن تحقق أيًا من طموحاته، ولا يسمح لها بالنقاش فى هذا الأمر مرة أخرى، فلا مجال للوصول إلى مبتغاة إلا العمل الحر ... ولكن ما هو هذا العمل الحر؟ هكذا تساءلت الزوجة، فأجابها أنه لم يقرر بعد، فهذا أمر يحتاج إلى بحث ودراسة، وبدأ فى البحث والدراسة، فوجد أن أى عمل حر يحتاج إلى قدر من المال ليبدأ به، وهذا ما لم يكن متوفرا لديه، فبدأ فى زيارات مكوكية لأقاربه ومعارفه، يعرض عليهم بعضا من أفكاره لمشاريع تبدو مضمونة المكسب، فاعتذر البعض وقبل البعض الآخر، وجمع قدرا من المال، وبدأ يتحمس كما بدأت زوجته تتفاءل فى أنه وضع أقدامه على الطريق السليم، وأول ما فكر فيه هو تجارة السيارات، فصورة زميله ذى السيارة الفارهة مازالت عالقة فى ذهنه، منذ رآه وبداخله رغبة عميقة

د.طارق درويش
استشارى الطب النفسى

فى أن يصير مثله، لذلك قرر أن يسير على دربه، وبدأ فى شراء إحدى السيارات، ولكنه خسر فيها قليلا ، فهو ليس دقيقا فى الشراء كما أنه غير محنك فى البيع، ولكن هذا لم يمنعه من تكرار المحاولة، وأعاد الكرة المرة تلو الأخرى، حقق بعض الربح أحيانا وخسر أحيانا أخرى، ولكنه بعد مضى أكثر من عام وجد أنه لم يحقق أى ربح يذكر، فهو لم يكن دقيقا فى حساباته، كما أنه كان ينفق من المال على متطلبات الأسرة، مما قلص الكثير من رأس المال الذى بدأ به، وعندما سأله شركاؤه عن الأرباح، بدأ يماطلهم ويتعلل بأعذار واهية، وطالبهم بإعطائه مهلة حتى يستطيع جمع أمواله المتناثرة فى السوق، فقبلوا على استحياء، وبينما كان يقود إحدى السيارات الجديدة، تعرض لحادث عنيف، خرج منه سليما، ولكن السيارة التى كان يقودها دُمرت بشكل كامل، وعندما جاء شركاؤه لزيارته، باتوا يسألونه عن أموالهم، فأخبرهم أنه لا توجد أرباح، كما أنه لا يوجد رأسمال، فكله ذهب فى تلك السيارة، وطالبهم بمنحه أموالا أخرى حتى يبدأ من جديد، وانهالت الدعوات الحارة عليه من كل صوب مصحوبة من البعض بتهديد ووعيد، لكنه لم يكن يملك شيئًا ليرده، ويئس الشركاء بعد فترة من استعادة أموالهم .

وعادت حاجته إلى المال تلح عليه ليبدأ من جديد فى مشروع آخر قد يكون أوفر حظا، لكن تلك المرة لم يجد من يصغى إليه، فما عاد أحد يثق به، وبدأ يشعر بعجز شديد، كما زادت متطلبات الأسرة بزيادة عدد أفرادها، وأصبح عاجزا تماما عن توفير أيٍ من احتياجاتهم، وصار الحمل الأكبر على الزوجة التى بدأت تشعر بثورة عارمة على زوجها الخيالى، الذى ترك لها مسئولية الأسرة وراح يبحث عن أمور هى من وجهة نظرها أشبه بالسراب، وبدأت تلح عليه ثانية فى أمر الوظيفة الحكومية، فشيء ضئيل أفضل من لا شيء، ولكنه

ظل يماطلها، فقد كان يشعر فى أعماقه أن قبوله بهذا الأمر يعنى الاستسلام، وبداية النهاية بالنسبة له، فظل يبحث عن مخرج، ويحاول اختراق الأبواب الموصدة، فحاول أن يقوم ببعض العمليات التجارية المحدودة، أو أعمال السمسرة المتواضعة، ولكنها لم تكن ذات نفع أو تأثير، وبدأ الإحساس بالفشل يتعمق بداخله، كما بدأ يشعر بالتعب من كثرة المحاولات العقيمة، وشيئا فشيئا بدأ يفتر حماسه وتنهار عزيمته، ولم تعد له القدرة على الاستمرار، وما زاد المشكلة تعقيدا، غضب زوجته وحنقها الشديد عليه، ورفضها الكامل لأسلوبه فى التعامل غير الواقعى مع الظروف الصعبة التى يعيشونها، وتحت ضغط اليأس والفاقة، والعوز، وإلحاح الزوجة، أذعن فى النهاية وتقدم لوظيفة حكومية متواضعة، ذات راتب محدود، وبدأ العمل بها، وكان هذا بمثابة إعلان لعجزه وانتحار لطموحه، وقبوله الاستسلام للأمر الواقع .... وبدأ يتغير، فصار صامتا معظم الأحيان، يبدو غير مكترث بما يحدث حوله، فاقدا روح المبادأة، فاتر الحماس، يواجه المشاكل ببرود وعدم اكتراث، يتجاهل كل المسئوليات التى توكل إليه أو يتجاهلها، والزوجة تستشيط غضبا، وصارت دائمة الثورة عليه، فقد أصبح راتباهما لا يكفيان احتياجاتهما، وعادت الزوجة تلح عليه فى البحث عن عمل مسائى، ولكنه ما عاد يلقى لها بالا، وصارت مجرد مصدر للإزعاج بالنسبة له، فصار يتحين الفرصة للخروج من المنزل، للابتعاد عنها، وأصبح يقضى معظم وقته على قهوة بجانب المنزل، يحتسى الشاى ويلعب الطاولة، ويتحدث فى السياسة أو عن مشاريع خيالية مع أصدقائه الذين هم أغلبهم فى سن المعاش، أو أمثاله من المحبطين. وبدأ تغيبه الدائم من المنزل يصبح مصدر إزعاج أكبر للزوجة، التى صارت تؤنبه وتهينه كلما رأته وتلومه على كل ما يفعله، سلبيته، تواكله، عدم تحمله المسئولية، كل تصرفاته، فهى لم تعد ترى فيه أى شيء إيجابى، وانعكس هذا على علاقتها به وأسلوبها معه، فأصبحت كمن يلقى الحطب على نار متأججة، ويداوى بالتى كانت هى الداء .

●●●

إن السلبية التى أصابت الزوج هى نتيجة حتمية لتكرار الفشل، خاصة حين يكون مصحوبا بتقلص فى الإمكانيات، وتحجيم شديد للمساحة التى من الممكن أن يتحرك فيها نتيجة العجز المادى، وما عاد يملك إلا الاستسلام، وتكونت بداخله معادلة مفادها أن أى محاولة جادة ستبوء بالفشل، فلم إذن المحاولة، كما صار يخشى حتى النخاع ذاك الشعور المرير الذى يصاحب ذلك الفشل، وهذا الذى كان يدفعه إلى تجنب المحاولات الجادة وأدى به إلى الجنوح الشديد للسلبية، وهى ليست تغير فى السمات الأساسية فى الفرد بقدر ما هى حالة مؤقتة من اليأس والانهزامية والاستسلام، استسلام لواقع هو فى الأصل مرفوض من جهته، ولكنه نتج عن قناعة رسخت مع الأيام أنه لا يقوى على تغييره، فإذا حدثت تلك الأمور قبل الزواج، فهى تؤدى ببعض الشباب المتفتح للحياة إلى الإصابة بحالة من الاكتئاب، قد تظهر بأعراضها الواضحة، أو تأتى بشكل مستتر على هيئة فقدان للطاقة، كسل، خمول، تجنب مواجهة المشاكل، الهروب من المسئوليات، التردد، صعوبة التركيز، وعدم القدرة على اتخاذ قرار .. أما إذا حدث هذا بعد الزواج، ستصبح تلك السلبية مثار صراع دائم بينه وبين الطرف الآخر، لأنه الطرف الذى سيلقى على عاتقه كل التبعات والنتائج المترتبة على سلبيته، فالحياة تمضى، واحتياجات الأسرة ومتطلبات الأولاد لا تتوقف، ويجب أن يكون هناك من يوفرها، والظروف تحتم على الزوجة القيام بدور البديل، وياله من حمل ثقيل، خاصة إذا كان مصحوبا بمشاعر الإحباط العميق تجاه شريك حياتها اليائس، المتردد، الفاقد الثقة، المستسلم فى سلبية مطلقة.هذا بالإضافة لأن الإحباط المتكرر يؤدى تلقائيا إلى تغيير سلبى فى المزاج فتتزايد مشاعر الاكتئاب، التى من أهم أعراضها، فتور فى الحماس وتكاسل شديد، وتردد، وفقدان للثقة بالنفس وعدم القدرة على اتخاذ القرارات، وكثير من تلك النماذج قد يكون فى حالة معاناة فعلية من اضطراب الاكتئاب .

لذلك يجب على كل إنسان أن يسعى لأن يكون على وعى كامل بقدراته، وأن يرسم طموحه تبعا لتلك القدرات، ولا يترك العنان لخياله للوصول لأبعد مما يمكنه تحقيقه. أما الزوجة، فقد كان من الممكن أن تعالج الأمر بهدوء إذا كانت على قدر من الحكمة والصبر، ففى تلك المواقف يجب أن تكون سندا لزوجها وعونا له، لأنه لم يدخر جهدا منذ البداية، ولكن ما حدث كان خارج حدود إرادته، فهى أخطأت منذ البداية بكثرة مقارنتها لظروفهما بظروف أقاربهما وأصدقائهما، مما أثار فيه مشاعر النقص ودفعه للخوض فى أمور لا يملك مقومات النجاح فيها، وحين تكرر الفشل ألقت على عاتقه المسئولية كاملة، وصارت تتعامل معه بحدة، فى وقت كان المفروض فيه أن تؤازره وتسانده، كما كان ينبغى أن تدفعه بهدوء لتكرار المحاولة وعدم الاستسلام لليأس، وتوجيهه إلى المجالات التى يملك مقومات النجاح فيها، فكلٌ منا له إمكانات تؤهله للنجاح فى مجال ما، المهم أن يسلك ذلك المجال دون غيره، ربما النجاح يبعث فيه الحياة من جديد، فالنجاح .... والنجاح فقط وليس غيره، هو الذى يستطيع أن يعيد هذا الزوج إلى ما كان عليه، ويعيد العلاقة الزوجية برمتها إلى سابق عهدها.